حين يخيف بفرسه كل قطعان الحيوانات الأخرى ، فالفرس سيدها جميعا ، يتحكم فيها وينشر بينها ضروبا من الفوضى والفزع يرمز بها إلى حريته المطلقة وسيادته وتمكّن فارسه من قيادته وتأكد منطق التفاهم بينه وبينه :

وقد أغتدى والطيرُ فى وكُنَاتها ... لغيث من الوسمّى رائده خال
بعلْجزَةٍ قد أترزَ الجرىُ لحمها ... كميتٍ كأنها هراوة منوال
ذَعَرْتُ بها سربا نقيًا جلوده ... وأكرعه وَشْىُ البرود من الخال
كأن الصوار إذا تجّهد عدوُّه ... على جمزى خيلٌ تجول بإجلال
فعادى عِداءً بين ثور ونعجة ... وكان عِداءُ الوحش منى على بال

فهو يعجب من فرسه بصلابته ، وتعجبه قوة بنيان جسده ، وشدة ضموره ، فكأنه الهراوة القوية التى تحدث ذلك الفزع بين أسراب البقر الوحشى التى فرّت أمامه مذعورة حتى أجهدها العَدْو - فاضطرها الرهق والمعاناة إلى الاستسلام له ، وهو سريع الانطلاق بينها حتى يصيدها بعد مطاردات مثيرة يبدو فيها الفرس صورة من فارسه الذي لا يرضى من حياته إلا أن يصيد ذلك المجد فى لحظة نصر ينتظرها كما صوّر ذلك قوله :

فلو أنَّ ما أسْعَى لأدنىَ معيشة ... كفاني - ولم أطلب - قليلٌ من المال
ولكنني أسعي لمجد مؤثَّل ... وقد يدركُ المجدَ المؤثلَ أمثالى

وعلى هذا لم ينصرف الشاعر عن تصوير مثالية جواده ، بل تكررت لديه المشاهد ، وارتسمت فى مخيلته الصور التى رآها قريناً لإمارته وفروسيته ، خاصة إذ أخذنا بدلالة ما رصده امرؤ القيس نفسه فى تفاصيل المشهد فى بائيته التى يراه فيها :

وقد اغتدي والطيرُ في وُكُناتها ... وماءُ الندى يجري عَلَى كل مِذْنَب
بمنجرد قيد الأوابد لاحَه ... طرادُ الهوادى كلَّ شأو مُغَرب
علي الأين جَيَّاشٌ كأن انهرامَهُ ... على الضمر والتعداد سَرْجة مرقب
يبارى الخنوف المستقل زماعُه ... تري شخصه كأنه عُودُ مشجب
له أيْطلا ظَبْى وساقا نعامة ... وصهوةُ عَيْر قائم فوْقَ مرقَبَ
ويخطو على صُمٍّ صلاب كأنها ... حجارة غيل وارساتٌ بطحلب
له كَفَلٌ كالدّعص لَبَّدَهُ الندى ... إلى حارك مثل الغبيط المُذَأَّب